

سيمولوجيا الصورة

المصطلح والمفهوم:

سواء تعلق الأمر بالسيمولوجيا أو بالسيمائية فالأصل اليوناني ههنا واحد: sêmeiôtikê من سيمييون sêmeion الذي يقصد به الدليل، و لوغوس أي خطاب أو علم، و الحاصل علم العلامة أو الدليل.

لقد ورد مصطلح السيمولوجيا في معجم ماكسيميليان إميل ليتري بمعنى طبي خالص كونه " ...قسم من الطب يدرس علامات الأمراض". أمّا مصطلح السيمائية، فلقد برز كمرادف له و لكن مع إضافة معنى آخر يحيل إلى المجال العسكري على أنه: " فن تحريك الفرق مع الإشارة إليها بالحركات لا بالصوت".

المؤكّد أنّ جميع الدلالات تلتقي عند مفهوم الإشارة أو العلامة الذي تنبني عليه المنظومات المنهجية للمدراس السيمولوجية المخلفة سواء مع غريماس (السيمائية) أو رولان بارث (السيمولوجيا) أو جوليا كريستيفا (سيمائية تحليلية sémanalyse)...

لقد راج مصطلح السيمائية في النصوص الانكليزية مع جون لوك تحديدا و الذي يغطي مجالا يعنى بدراسة العلامات، فاللسان يحتلّ موقعا أساسيا ضمن نظرية المعرفة، و السيمائية، كالفيزياء، تبرز، في تصوّره، كعلم للدلائل التي يستخدمها الدّهن لفهم الأشياء أو لتبليغ المعرفة للآخرين".

و جدير بالذكر من ناحية أخرى أنّ عديد الدارسين العرب حاولوا من جهتهم التّأصيل للسيمائية في النصوص العربية القديمة، فمنهم من يذهب افتراضيا، إلى أنّ أصل كلمة سيمائية عربي بامتياز: ف"السيمياء" تستعمل للدلالة على العلامة بالمعنى ذاته الذي نجده في القرآن الكريم:

"سيماهم على وجوههم من أثر السجود" (سورة الفتح، الآية 25)

"و الخيل المسومة" (سورة الفتح، الآية 25)

و تنهض هذه الفرضية على الاعتقاد أنّ الفعل سوّم هو مصدر الاشتقاق للسيماء و السومة و السيمة, فقولنا "سوّم حصانا" يعني جعله مميّزا بعلامة. لكن في المقابل، فإنّ ذلك كلّ لا يشكّل مسوّغا كافيا للقول بأن الأمر يتعلّق بالسيمولوجيا كحقل معرفي يهتم بدراسة الدليل و المعنى. فكلّمة السيمياء "تدل على غير الحقيقي من الأمور و أيضا للإشارة إلى السحر و الشعوذة و إلى إحداث حالات خيالية لا و جود لها في عالم الحسّ"، كما تقترب من الممارسة الطبية و الكيمياء (خاصة مع العالم جابر بن حيان). لكن ما ينبغي التأكيد عليه هو أنّ المعنى و مسألة الدلالة كان حاضرا، ربّما تحت مسمى الدراسات البلاغية لا السيميائية أو السيميولوجية. و بهذا الشأن فإنّ قضية الإعجاز القرآني كثيرا ما تفتح المجال أمام المفاضلة بين اللفظ و المعنى.

من الصعوبة بما كان تحديد تعريف جامع و نهائي للسيمولوجيا، فالتعاريف التي نصادفها في الغالب تعبّر فعلا عن وجهة نظر بعينها و تنطلق من مسلمات نظرية لا تتطابق بالضرورة مع باقي الرؤى و المدارس حينما يتعلّق الأمر بمسألة الدليل و باشتغاله و إنتاجه مثلما سنرى لاحقا و أيضا بقضية الدلالة و إمكانيات مقاربتها. زد على ذلك أنّ الدليل يشكّل موضوع دراسة لعديد من الحقول المعرفية: علم النفس، الإناسة،...

لكن على الرغم من ذلك يمكننا القول أنّ السيميولوجيا تبرز كمشروع علمي للدليل اللساني و غير اللساني، و بما أنّها لا تزال مشروعا في طور التأسيس، فإنّ موضوعها يقول رولان بارث هو: "كلّ نسق من الدلائل مهما كان جوهرها و كيفما كانت حدودها: فالصور و الحركات و الأصوات النغمية، و مواضيع و مركّبات هذه الجواهر التي نجدها في الشعائر و البروتوكولات و العروض، تشكل كلّها ألسنا أو على الأقلّ أنظمة دلالة".

و في سياق متّصل فإنّ الصورة تبرز مثلما سنرى وفق أوجه متعدّدة و كلّ وجه من هذه الأوجه جدير بدراسة علمية وفق منظور جمالي أو سيكولوجي أو أنثروبولوجي... هذه المنظورات لا يقصي بعضها البعض على الرغم من اختلافها و تباين مسلماتها و لكن تبدو متكاملة بحكم مبدأ العلمية البينية الذي يشكّل أساسا للعلوم. و متنوّعة و أيضا تسعى لأنّ تقترح نماذج إجرائية نقدية تستهدف دراسة الآثار الأدبية و الفنية من منظور محدّد دلالي أو تداولي...

تسعى سيميولوجيا الصورة تأسيسا على ما سبق لفهم النظام الدلالي الذي تنهض عليه الصورة بمختلف تنوعاتها و تمظهراتها، و لاقتراح جهاز نظري من المفاهيم الإجرائية التي من شأنها الكشف عن مفعولات المعنى التي تخترق البنى المختلفة. فالصورة في العصر الحالي صارت رهانا متعدد الأبعاد، و صناعتها لم تعد مثل سابق عهدها مقتصرة على مسألة الذوق أو المزاج، بقدر ما تحوّلت لآلية من الآليات المعروفة للتأسيس لموقف أو رأي عام، و يلجأ أثناء صياغتها لاستراتيجيات معقدة تهدف إلى تشفيرها بشكل يتطلّب ملكة خاصّة و أدوات منهجية مبتكرة لفكّها بشكل أمثل، و في هذا الشأن تقول إحدى الباحثات:

" و الواقع أنّ استعمال الصور ينتشر بشكل متسارع، و سواء شاهدناها أو صنعناها، فنحن مدعوون يوميا لاستعمالها، و لفكّ سننها، و لتأويلها. إنّ إحدى الأسباب التي لأجلها يمكن أن تبدو خطيرة هو أنّنا في صلب مفارقة غريبة:

فمن جهة، نحن نقرأ الصور بشكل طبيعي على الإطلاق، لا يقتضي أيّ تعليم و من جهة أخرى، يبدو و كأنّنا نتلقّى ، و نحن أقرب إلى اللاوعي منه إلى الوعي، مهارة بعض المتمرسين الذين في إمكانهم التلاعب بنا من خلال إغراقنا بصور مشقّرة بشكل سري مستغلين سداجتنا."

الصورة

من الصعوبة بما كان الوقوف على تعريف جامع للصورة، ذلك أنّها على الرغم من ارتباطها الوثيق بالفنون البصرية، و ذلك عند حديثنا عن الصورة التشكيلية أو الصورة الإشهارية أو الصورة الفوتوغرافية...أو عند حديثنا عن الصورة الثابتة أو المتحرّكة، إلّا أنّها لا تقتصر عليها. فالصورة يمكن أن تكون أيضا ذهنية أو مثلما تقول الباحثة agnès minazzoli :

" لا يمكن فصل الصورة عن جذورها الموجودة في الذاكرة و في الخيال و في الفكر أو الحلم." فهي إذا متواجدة بإصرار في حياتنا بأشكال مختلفة يتعذر علينا في الكثير من الأحيان حصرها. اشتقاقيا تحيل كلمة image إلى اللاتينية imago التي تعني " التمثيل"، كتمثيل لمنظر ما مثلا، أو شخص أو أي موضوع من مواضيع العالم، و تحمل أيضا دلالة التقليد، على أن، ينوب، بهذا التصوّر الشيء المقلّد عن الشيء المُقلّد و تلك مسألة تتساوق مع الرؤية اليونانية القديمة التي كانت ترى في الفن، و عبر الصورة تحديدا من جملة المواضيع الأخرى، مجرد محاكاة

سلبية و ممقوتة مع أفلاطون أو محاكاة إيجابية و ضرورية، بما أنّها تستجيب لحاجة جمالية، مع أرسطو.

أحد الباحثين يشير إلى أنّ مصطلح الصورة يفتح على معان غير محدودة، و هو يحصي على سبيل الذكر لا الحصر أصنافا معيّنة للصورة:

الصورة كصورة إعلامية

ذكريات صور

الصور و الأصول

الصورة و النفسية

الصورة العلمية.

سيمائية شارل سندرس بورس

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، نلاحظ بروز الإرهاصات الأولى للنظرية السيميائية، أسواء تعلق الأمر بالسويسري فرديناند دي سوسير، أم بعالم المنطق الأمريكي شارل سندرس بورس الذي تبرز السيميائية في تصوره وجها آخر للمنطق، و سيكون موضوعها الدليل:

فالفكر يمر عبر الدليل بل الوجود في حد ذاته مرتبط بالدليل و يتمظهر من خلاله. إنَّ هذه السيميائية ستتناول جميع أشكال الدوال الممكنة، على غرار الخطاب الأدبي و الخطاب التشكيلي و الصورة بجميع تنوّعاتها...

و يقدّم بورس نفسه على أنه مكتشف هذا الحقل المعرفي دوناً عن غيره:

" على ما أعلم، فأنا رائد أو بالأحرى مستصلح للغابات مهمّته إفساح السبل و فتحها و شقّ الطريق نحو ما أسميه سيميائية...".

1/ نظرية ثلاثية

إنّ ما يميّز نظرية بورس، هو أنّها دائماً ثلاثية الأبعاد في جميع تفاصيلها، فهي في الوقت نفسه نظرية شمولية تستوعب الوجود بأكمله من الفكر إلى الحياة العملية و العاطفية و تتأسس السيميوسيس (العلاقة الفعلية بين الدلائل الأساسية) في إطارها على ثلاثة عناصر ضرورية: الماثول / الموضوع / المؤول.

و تفضى العلاقة فيها بين الماثول و الموضوع إلى ثلاثة أنواع من الدلائل: الأيقونة و القرينة و الرّمز.

إلى جانب ذلك كله فإن كلّ مرحلة من مراحل المسار السيميائي، تتطابق مع إحدى المقولات الثلاث: الإوالية، و الثانوية و الثالثة.

2/ الدليل

بداية، سنقول أنّ أيّ شيء يمكنه أن يشكّل دليلاً متى أثار فكرة أو دلالة، أو جعل ضرورة لدى المتلقّي لتأويل تجربة ما ضمن نسق مجتمعي ما.

في نظر شارل سندرس بورس فإنّ كلّ فكر يرتهن إلى الدليل. و يعرف هذا الأخير بكونه كلّ ما يمكنه أن يبلّغنا فكرة ما عن موضوع ما شريطة أن يكون هذا الموضوع معروفاً عند المؤول. فكلّ شيء مهمّما كان بسيطاً أو مركّباً، يمكن أن يكون دليلاً. و ما يمكننا تسجيله في هذا السياق هو أنّ الدليل:

" له مادية يمكننا إدراكها بوحدة أو عديد من حواسنا. فياستطاعتنا رؤيته (موضوع، لون أو حركة) أو سماعه (لغة متمفصلة، صراخ، موسيقى، ضجيج) أو اشتمامه (روائح مختلفة):

عطر أو دخان) أو لمسها أو تذوقه كذلك." و الجدير بالذكر في هذا السياق أنه ،أي الدليل، لا يعرف الشيء، فوظيفته تمثيلية صرفة أي أنه ينوب عنه (مثال: القصاصة الحمراء التي توضع كعينة على علبة الطلاء، لا تدلنا سوى على لونه فحسب، غير أنها لا تقول شيئا عن أوجهه الأخرى المختلفة مثل المادة التي صنع منها أو استعمالها...).

من ناحية أخرى، فإنّ هذا الدليل إذن، لن يكون كذلك إلاّ إذا نجم عن السيميوزيس، بمعنى أنّ الدليل سيعرّف بهذه الصفة متى انضوى تحت مسار سيميائي.

إنّ مفهوم المسار هنا لا يحيل إلى مجرد فكرة ثابتة بقدر ما يحيل إلى اشتغال حركي بين هيئات إبلاغية محدّدة: فالمسار السيميائي هو علاقة ثلاثية بين دليل أول (الماثول representamen) و دليل ثان يكون موضوعه و دليل ثالث يكون مؤوله. نلاحظ هنا أنّ الأمر يتعلّق بنسق توليدي بعكس فرديناند دي سوسير: فالدليل هنا يولّد دليلا آخر بينما لدى الثاني فإنّ الدليل كيان متلاحم و منشطر إلى دال و مدلول.

و جدير بالذكر أنّ المؤول مؤهل بدوره لأن يتحوّل إلى دليل- ماثول يحيل إلى دليل-موضوع و يثير علاقة مع دليل-مؤول لتكرّر المسألة بشكل مستمرّ حتى تُستنفذ جميع إمكانات بروز دليل جديد، أو ترسخ التجربة المعرفية بشكل عميق.

لو قلنا مثلا الجوكوندا أو الموناليزا، سنتصوّر بأنّ هذا الدليل-الماثول سيحيلنا إلى الدليل-الموضوع لوحة الموناليزا التي رسمها الفنان ليوناردو دافنشي، هذه الإحالة ترتبها بحسب بورس إلى معرفة مسبقة و مشتركة بالموضوع تكون مشكّلة من دلائل أخرى. سيخضع هذا الدليل إلى تأويل من طرف المتلقي عبر دليل آخر يفتح المجال أمام دور تخاطبية أو إبلاغية أخرى و هكذا دواليك.

نلاحظ في الأخير أنّ شارل ساندرس بيرس يميز بين نوعين من المواضيع، فلدينا من جهة الموضوع الدينامي، أي الموضوع مثلما يعرض في الواقع و الموضوع المباشر من جهة أخرى: فبالنسبة إلى مثالنا، فإنّ الموناليزا السيدة مثلما هي موجودة على أرض الواقع تعتبر موضوعا حركيا بينما يشكّل تمظهرها الدلائلي، موضوعا مباشرا، أي الصورة التي يبرز عليها من خلال الدليل.

3/ الأيقونة/ القرينة/ الرمز

بحسب طبيعة العلاقة بين الدليل-الماثول و الدليل-الموضوع، يمكننا أن نفضي في تصوّر بورس إلى ثلاثة أنماط أساسية من الدلائل: الأيقونة و القرينة و الرمز.

ملاحظة: نحن هنا في هذا المستوى، نتحدّث عن الموضوع الذي يحيل إليه الماثول، و سنقتصر عليه بما أنه يتّسع لنا أن الحديث عن أنواع الماثول و المؤول، لكن لإعتبارات بيداغوجية سنتوقّف فقط عند الأنواع التالية:

أ- الأيقونة:

بحكم العلاقة التماثلية بين الماثول و الموضوع نكون عندئذ أمام أيقونة، فمجسم الكلية مثلا يبرز كأيقونة لها، و رسم الموناليزا أيضا ايقونة للسيدة موناليزا تأسيسا على التشابه القائم بينهما، قس على ذلك أيضا الصورة الفوتوغرافية أيضا.

ب- القرينة:

يشتغل الدليل-الماثول كقرينة، حينما يحيل مباشرة إلى موضوع مرتبط به منطقيا أن جاز لنا التعبير، فالدخان الذي نلمحه من مسافة ما قرينة لوجود نار، و حركة الرأس من الأعلى إلى الأسفل قرينة على موافقة على أمر ما. المسألة ههنا استنتاجية فقط، و زمتيا هي بعدية بالنسبة إلى الموضوع.

ج- الرمز:

يشتغل الدليل-الماثول كرمز، حينما يحيل إلى موضوعه انطلاقا من قانون ما، كالشيفرة أو التذكرة، أي تذكرة كانت، أو العادات و التقاليد، أو اللسان.

3/ المقولات:

يقترح شارل ساندرس بيرس بالنسبة إلى كلّ نوع من انواع الدلائل الثلاث(الماثول و الموضوع و المؤول) مقولة محدّدة، و هذه المقولات هي من الشمولية و الشكلانية بحيث يمكنها استيعاب كامل مظاهر التجربة الإنسانية:

أ- الأولية:

تجمع مقولة الأولية بين طرفي الحضور و الغياب بحيث يمكننا الحديث عن الشيء و لكن هكذا بدون تفصيل، لأننا هنا في صلب حيّز فوضوي، بدون معالم، بدون أجزاء، بدون حدود. إنّه عالم شمولي نتصوّر فيه الأشياء في شموليتها: يمكننا أن نتحدّث هنا عن كيفية ما أو

إنطباع في وجودهما المطلق: الاحمرار مثلا في وضعه الافتراضي دون وصف ممكن، الاحمرار قبل أن يتجسد في موضوع بعينه أو ألم ما من دون معرفة سبب هذا الألم أو طبيعته أو وضعه الأنطولوجي. فالأمر يتعلّق هنا بعالم مجرد من الحدود و من الأجزاء عالم مجرد من الزمن من السابق و من اللاحق، لا تحكمه أسباب و لا يفضي إلى نتائج، عالم غير متحقّق و لكنّه ممكن التحقّق أو عدمه....عالم لا ردة فعل فيه لأنّ الفعل فيه أصلا منعدم...

ب- الثانوية:

عالم الثانوية علم نسبي، تبرز فيه المعالم و العلاقات تأسيسا على أن الكائن يمكن تصوّره، بعكس الإوالية، في علاقته بشيء آخر، نحن هنا أمام الوجود الفعلي للأشياء، إنّه بالتعبير الأرسطي انتقال من موجود بالقوّة (الافتراض) إلى وجود بالفعل.

فأنا أعلم الآن أن الإحساس الغامض سالفا بالألم يعزى لشيء بعينه، و أعلم أن هذا الطلاء تحقّق فيه اللون الأحمر الذي كان مجرد كيفية كامنة. فبتحقّقها فإنّ الأشياء تنضوي تحت زمنية معيّنة، ستعرف "القبل" و "البعء"، ستعرف الوجود الفعلي و هذا الوجود مؤهل للإدراك و للحكم...

إن علم الثانوية هو عالم الفعل، و كلّ فعل يفترض بالضرورة ردة فعل.

ج- الثالثة:

الثالثة هي مقولة تتطابق مع الفكر و العلوم، فهي تتعلّق بالقانون، و على هذا الأساس، فإنّ القانون لكي يتحقّق، عليه أن يستند إلى تجربة فعلية و إلى واقعة موضوعية. معنى ذلك أنّ الثالثة مرتبطة ارتباطا وثيقا بالثانوية لأنّ هذه الأخيرة مثلما رأينا من قبل تشكّل الحيز الذي تتحقّق فيه الوقائع و الكيفيات و التجارب. و الوقائع (أي الثانوية) لا يمكنها أن تتحقّق بمعزل عن الصفات و الكيفيات (أي الأولية). فالثالثة على هذا النحو هي الوسطة التي تجمع بين الأولية و الثانوية. فالقانون لا يعدو عن كونه مجموع تجربة و كيفية.

من ناحية أخرى، فالقانون ينفرد بكونه شموليا هو الآخر، لكن هذه الشمولية بعكس شمولية الأولية ضرورية و حتمية، أي أنّه إذا توفرت العلة نجم عنها بالضرورة النتيجة و تحقّق غيرها القانون.

سيمولوجيا فرديناند دي سوسير

مع فرديناند دي سوسير سوف نشهد التأسيس لمنطلقات منهجية جديدة لعلم جديد، أي السيمولوجيا يتناول دراسة جميع أنظمة الدلائل الدالة باللسان و بغير اللسان، و في هذا الإطار يُنقل عنه قوله:

"يمكننا أن نتصور علما يدرس حياة الدلائل في صلب الحياة الاجتماعية. سيشكل جزءا من علم النفس الاجتماعي و بالتالي جزءا من علم النفس العام..."

و في تصوّره فإن العلاقة بين السيمولوجيا و بين اللسانيات تبعية إلى حدّ ما، ذلك أنّ المسائل التي تعني الظاهرة اللسانية، تهتمّ بالأساس علم الدلائل. و لهذا الاعتبار، يمكن أن تشكّل اللسانيات نقطة ارتكاز لبناء هذا الحقل المعرفي.

يرى فرديناند دي سوسير، في محاضراته، أنّ العلاقة بين السيمولوجيا و اللسانيات، نظريا، هي علاقة الكلّ بالجزء، فالأولى تستوعب الثانية. اللسان نظام من الدلائل المعبّرة عن الأفكار، فهو يتماهى تأسيسا على ذلك مع أنظمة الدلائل الأخرى غير اللسانية، كالطقوس و لغة الصّم و البكم... غير أنّ المنطلقات المنهجية للسيمولوجيا لم تكن قد تأسّست بعد لحظة ظهور اللسانيات البنيوية، فموضوعها لم يكن متميّزا بما فيه الكفاية لأنّ دراسته مشتتة بين حقول معرفية متنوّعة. إنّ وضعها كهذا يعزى بالتّحديد إلى افتقارنا لكلّ ما من شأنه أن يدلّنا على طبيعة الواقعة السيمولوجية و كذا للأدوات الإجرائية التي تسمح لنا بمقاربة هذه الواقعة... ضمن هذا السياق، فإنّ اللسان الطبيعي القائم بامتياز على اعتبارية الدليل، سيصير بالتالي هو الموجه الأساسي في تصنيف الطّواهر الدّالة، وعلى السيمولوجيا إذا أن تخضع لمفاهيمه و أن تستنسخ تجربته... و بالتالي فالمفاهيم و الإجراءات نفسها التي يتناول اللسان على ضوءها ستقيّد الدّراسات السيمولوجية المستقبلية.

الدليل

الدليل عند فرديناند دي سوسير كيان نفسي يتشكّل من وجهين مترابطين و متضامنين هما الدال و المدلول، فهو بهذا الطرح يختلف عن شارل سندرل بيرس الذي ينفرد الدليل عنده بكونه توليدي إن جاز لنا التعبير...